أزهار الرياض فى أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقترى التلمسانى ، تحقيق: على عمر
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
1مج ، سم
تدمك : 978-977-341-495-5
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر،على (محقق)
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16751

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم

مقدمة التحقيق

المؤلف وكتابه:

المؤلف: هو أحمد بن محمد بن يحيى أبو العباس المقّرى التلمسانى، المؤرخ الأديب الحافظ، صاحب نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، ولد سنة ٩٨٦هـ ونشأ فى تلمسان بالمغرب، وانتقل إلى فاس ومنها إلى القاهرة، وتنقل فى الديار المصرية والشامية والحجازية، وتوفى بمصر سنة ١٠٤١هـ ودفن فى مقبرة المجاورين.

وقيل: توفى بالشام مسمومًا.

والمقّرى: نسبة إلى مَقَّرة - بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة - من قرى تلمسان.

له عدا نفح الطيب، كتب جليلة منها: إضاءة الدجنة فى اعتقاد أهل السنة، وروضة الأنس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس، وعرف النشق فى أخبار دمشق، وله شعر حسن ومزدوجات رقيقة وأخبار ومطارحات كثيرة مع أدباء عصره.

ويعتبر المقّرى من أبرز وجوه المغرب الفكرية فى عصره، وقد تجلى ذلك فى كتاباته التى أسهم بها فى فنون عدة.

وكتابه أزهار الرياض الذى نقدم له اليوم فوق اشتماله على ترجمة القاضى عياض يمتاز بطائفة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربية والأندلسية،

التى لم ترد فى نفح الطيب ولا فى غيره من الكتب المطبـوعة حتى الآن، كما نقل عن كتب أخرى بعضها مفقود والآخر ما زال فى دور الكتب مخطوطًا.

ولذلك يعد نشره ثروة جديدة تضـاف إلى ما سبق نشره من آثار المغرب والأندلس فى عالم الدراسات العربية.

هذا وحينما شرعت فى تحقيق هذا الـكتاب رجعت إلى ما تيسر لى من نسخه المطبوعة والمخطوطة. ولم أشر إلى النقص فى بعض النسخ والزيادة فى البعض الآخـر، أو الخطأ فى بعضـها والصواب فى البـعض الآخر، متـخذًا النسخ كلها أصلاً يكمل بعضـها بعضًا ويصوب بعضها بعـضًا، وأشرت فقط إلى ما يضـاف إلى متن الكتاب من كـتب أخرى أو من عندى للتـوضيح فى المواطن التى تقتضى التوضيح.

وأرجو أن أكون عند حسن الظن، وأن يكون جهدى موضع القبول.

والله ولى التوفيق.

القاهرة فى ربيع الآخر سنة ١٤٣١هـ

شهر إبريل ٢٠١٠م

د. على عمر

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وآله

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أعلى مراتب العلماء الأعلام، وزكى منهم العقول الراجحة والأحلام، ومنحهم مآثر تقصر عن جمعها المحابر والأقلام؛ ومفاخرات طارت كل مطار. وجعل معاليهم زاهرة زاهية، وأضواء فهومهم نامية سامية، وأنواء علومهم هامعة هامية، بواكف الأمطار، وأطلعهم على دقائق الأسرار. وهداهم وهدى بهم إلى ترتيب المدارك، وتقريب المسالك؛ وجلى بمشارق الأنوار من معارفهم وآدابهم، عمن تمسك بأذيالهم وأهدابهم، غياهب الجهل الحوالك؛ فأضاءت الأقطار. وعرفهم المقاصد الحسان، والوسائل المغتبطة والإلماع، بأصول الرواية والسماع؛ والإعلام بحدود قواعد الإسلام؛ وإرشادهم إلى التنبيهات المستنبطة السامية الأخطار؛ حتى رفلوا من حلل التحقيق السابغة، فى مطارف[1] وبرود؛ ووردُوا من مناهل التوفيق السائغة، كل عذب برود؛ وتنسموا من حجج الحق البالغة، الروض المعطار؛ واجتنوا أزاهر، أضحت منية الطالب، وبغية الرائد؛ واجتلوا جواهر نظمت منها الدرر والفرائد؛ فى أجياد الأسطار. فإن أَمَّهم ناقص عديم، ألفى لديهم الغُنية والإكمال؛ أو قصدهم عليل سقيم، وجد فى يديهم الشفاء، فنال غاية الآمال، وظفر بمنتهى الأوطار. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد

(١) المِطْرَف: رداء أو ثوب من خَزّ مربّع ذى أعلام.

أفضل العالمين بإطلاق، سراج المريدين، وكنز العارفين، الذى لا يُخشى معه إملاق، عمدتنا العظمى، ووسيلتنا الكبرى عند الملك الخلاق؛ صاحب المعجزات الباهرة، التى اهتدى بها ذوو الأفكار، والآيات الظاهرة، التى حصل بها التمهيد لمن له استذكار؛ الموطأ الأكناف والأخلاق، المنتقى من أعظم الذخائر، وأنفس الأعلاق، المختار من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، الذين لنجومهم فى سماء الحق ائتلاق؛ صلاة وتسليما دائمين، ما أنشئت فى ثنائه الأحمدى، وأنشئت بفنائه المحمدى، القصائد والأبيات والأشطار. وبعد:

فيقول أحمد ذو القصو ... رِ المقَّرىّ إذا انتسب

جبر المهيمن صدعه ... ووقاه سيئ ما اكتسب

وحباه منحة مؤمن ... محض العبادة واحتسب

وأسدى إليه من المواهب أسناها، ومن العواقب حسناها:

إنه لما سبق القضاء وجرت الأقدار، بارتحالى عن الوطن المحبوب والقرار، بعد أن شممت عراره النجدى ولا أشجان ولا أكدار، فى عشية لم يكن بعدها من عرار[1]؛ ونزحت عن بلد، به الوالد وما ولد؛ محل قطع التمائم[2]، وفتح الكمائم، سقى الله عهاده صوب الغمائم:

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة ... ومن الجسور المحكمات سواره

(١) العَرَار: نبات طيب الرائحة، الواحدة: عَرَارة.

(٢) التميمة ما يعلق فى العنق لدفع العين.

وكان ذلك وغصن النشاط يانع، وبرد الشباب قشيب، وشمل النفس مجتمع دون مانع، وكأس الأنس مزج بتسنيم القرب وشيب؛ وفود[1] الرأس غير خاضع ولا خانع، إذ لم تطرق ساحته ولم تجس خلاله جيوش المشيب؛ حللت الحضرة الفاسية - حاطها الله - حيث المجالس غاصة، بالعامة والخاصة؛ والمساجد آهلة معمورة، والمشاهد بالزوار مغمورة؛ وحُلل المعارف فضفاضة، والعوارف الجليلة مفاضة، حضرة ديباجها ربيعى، وامتزاجها بالنفوس طبيعى، ولم لا، وقد نظمت المفاخر ونسقتها، وجمعت المآثر ووسقتها، جادتها غر السحب وسقتها:

بلاد بها الحصباء در وتربها ... عبير وأنفاس الرياح شمول

تسلسل منها ماؤها وهو مطلق ... وصح نسيم الروض وهو عليل

فألقيت بها عصا التسيار، وقاها الله من الآفات والأغيار، واقتفيت فى ذلك سنن بعض سلفى الأخيار؛ إذ كان أشهر أسلافنا الشيخ الإمام - صاحب التصانيف الشهيرة التى اقتادت المحاسن بزمام؛ القاضى الأشهر، العلامة الأظهر، أبو عبد الله محمّد [بن محمّد][2] بن أحمد المقرى القرشى، التلمسانى النشأة والقبر، أفاض الله سجال الرحمة على مثوى ذلك الحبر - انتقل إليها أيام السلطان المرحوم أبى عنان فارس، فولاه قضاء جماعتها، وبنى له المتوكلية أعظم المدارس، حسبما ذكره غير واحد من أهل الفهارس، وأشار إليه الوزير ابن الخطيب فى كتاب «الإحاطة» التى أحيت من التاريخ الرسم الدارس.

---

(١) الفود: جانب الرأس مما يلى الأذن، والشعر النابت فوقه.

(٢) ما بين الحاصرتين تكملة عن الإحاطة ج٢، ص ١٩١.

ولم تزل كتب الأقارب والإخوان ترد على، وتثنى عنان اعتنائها إلى؛ وتكرر وتعدد، وتنتاب وتتردد، وتتنوع وتتجدد، فأرتاح إليها ارتياح الغصن عند هزته، وأحن إليها حنين كُثير إلى معاهد عزته:

يا من يذكرنى حديث أحبتى طاب الحديث بذكرهم ويطيب
أعد الحديث علىّ من جنباته إنَّ الحديث عن الحبيب حبيب

وكثير ما يحرك ذلك منى كامن شوق، شب عمره عن الطوق؛ وأجد من لواعج الأوار، ما وجده الفرزدق عند مباينة النوار:

بلد الجزائر ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلى فى حبها كن عاذرى يكفيك منها ماؤها وهواها

والحنين إلى الوطن مجال لكل حر ومضمار!

إِيهٍ أحاديث نعمان وساكنه إنَّ الحديث عن الأحباب أسمار

وليس بمستنكر حنين الناب إلى عطنه، والمرء إلى محل نشأته ووطنه. وقد روينا فى الصحيح من حنين سيد الوجود عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلى مكة، ما لا يجهله إلاّ من هو عن العلوم بمعزل. ومن الأبيات السائرة:

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

ورب ذكرى أثارت الأشواق وحركتها، وأنشبت النفوس فى حبائل البوس وتركتها؛ وكم من ماجد بكى لفقد المشاهد، واهتم لبعد المعالم والمعاهد:

سـلام علـى تلك المعـاهـد إنهـا مـراتع أُلاَّفى وعـهـد صـحـابى

ويا سـرحـة الحى أنعـمى فلطالما سكبت على مـثـواك ماء شـبـابى

فلله تلك المعاهد، ما أبهج محيـاها! وحاط بعين كلاءته تلك المشاهد، ما أطيب رياها، حين باكرها الوسمى[1] وحياها:

حـيا تلمـسـان الحيـا فـربوعهـا صـــدف يجـــود بدره المكـنون

ما شئت من فضل عميم إن سقى أروى ومـنٍّ لـيـس بـالمـمـنـون

أو شئت من دين إذا قـدح الهدى أورى ودنيـــا لم تـكن بـالدون

ورد النسـيم لهـا بنشـر حـديقـة قـــد أزهـرت أفنانـهـــا بفـنون

وإذا حـبـيـبـة أم يحـيى أنجـبت فلهـا الشفوف عـلى عيون الـعون

طالما ذكرت الأبلة وشعب بوان، وأنست صروف الزمان الخوان، وأنبتت أزهار أنس ذات ألوان، وثمـار نخل من القـرب، صنوان وغـيـر صنوان، والشـمل مجـتمـع بالجيـران والإخوان؛ والروض مطلـول النبات، مـخضـر العذبات، مخضل الجنبات، مفوف الخمـائل، متضوع الشمائل؛ منساب الماء، منجاب السمـاء؛ والغصون متأودة الأعطاف، دانيـة الجنى والقطاف، والنسيم يعبق نشرا، والجو يتألق رونقًا وبشرا؛ فتقصر عنه أوصاف ذوى الإنصاف:

والزهر حـيـانا بثـغـر باسم والنهـر قـابلنا بقـلب صـافى

ولآلئ الأنداء فى الغدير غرقى، ودموع الـنهر لا ترقا؛ والزهر يسقط، وأكف الريح تكتب، والغمام ينقط:

---

(١) الوسمى: مطر الربيع الأول.

كـــأن أكف الريح تكتـب أسطرا على النهـر إلاّ أن أحـرفـهـا زُرق
فتـحنى عليهن الغصـون قدودها لتـقـرأها جـهـرا من الوَرق الوُرق

والورقاء تهتف لفقد إلف نازح، فتهيج شجو الجاد والمازح:

رب ورقـاء هـتـوف بالضـــحى ذات شـــجـو صـــدحت فى فنن
ذكـــرت إلفـا ودهـرا صـالحـــا فـبكت شـجوا فـهـاجت حـزنى
فـــــبكـائى ربما أرّقـــــهـــــا وبـــكـــــاهـــا ربمـا أرقـــــنـــى
فـــإذا تبـــدؤنـى أســـعـــــدها وإذا أبدؤهـا تســـــــعـــــــدنـى
ولقـد تبـكى فـمـا أفـهـــمـهـا ولقـــد أبكى فـــمـا تفـــهـــمنى
غـيـر أنى بالـشـجـا أعـرفـهـا وهى أيضًـــا بالشـــجـا تعـــرفنى

فأكرم بها مـن ذات طوق، عبرت عما فى ضميـرها من جوى وشوق، فساقت لواعج الأفكار أى سوق، وبينها وبين الصب فرق، عند ذوى الذوق:

وترنمت ذات الجـناح بســـحـــرة بالواديين فـهـيـجت أشـــواقى
ورقـــا تعلـمت البكا والـبث من يعـقـوب والألحـان من إسـحـاق
أنى تضـــاهينى هـوى وصـبـــابة وأسى وفـرط جوى وفيض مـآقى
وأنا الذى أملى الهوى من خاطرى وهـى الـتـى تمـلـى مـن الأوراق

فـمـا كـان أسـرع من تمزيق ذلك الإهـاب، وحـصـول شـمله فى يد الانتهاب، وإنشاد لسان حاله عند الذهاب:

ألاّ إنَّ هـذا الـدهـر يوم ولـيـلـة يكران من سـبت عليك إلى سـبت
فقل لجـديد العيش لا بد من بلى وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت

وهكذا الدنيا إحلاء وإمرار، وإقرار وإنكار، وإعلان وإسرار؛ تعفى كل ربع عامر، وتبيد كل مأمور وآمر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بعدما نعمنا برهة من الزمان فى ظلال الأمان؛ وقطعنا نبذة من الشباب، فى مواطن الأحباب؛ ما بين دراسة ودراية ورواية، وممارسة أمور تبعد عن طرق الغواية؛ وتحبير طروس، وملازمة دروس، ومثول بين يدى أشياخ مجالستهم نامية الغروس؛ وخصوصا شيخهم الذى فضله لا يفترق إلى دلالة، عمنا مُفْتيها سيدى سعيد بن أحمد المقَّرى، شكر الله خلاله، فهو شيخ أولئك الأعلام الذين ورثوا العلم من غير كلالة، وعمروا ربوع المجد، وتفيئوا ظلاله، وأرشدوا إلى سبل الهدى، وأزاحوا عن الضلالة، وعمرت أرضهم بكل مجد وجلاله، وإن نَبَتْ بى عن جفوة وملاله؛ فآها على ذلك العصر ما أبهاه وأجمله! وأتمه وأكمله؛ عصر يكاد يكلمنا فيه الجماد، وترويناالثماد؛ وتحيينا العشيات والبكر، ولا تنتابنا التعلات ولا الفكر؛ فإن سألنا فعنه فى الحقيقة، وإن صرحنا أو كنينا، فنعنى حماه وعقيقه:

نسائل عن ثمامات بحزوى وبان الرمل يعلم ما عنينا

وقد كشف الغطا فما نبالى أصرحنا بذكرى أم كنينا

ولو أنى أنادى يا سليمى لقالوا ما أردت سوى لبينى

ألاّ لله طيف كان يسقى بكاسات الكرى زورا ومينا

فأمسينا كأنا ما افترقنا وأصبحنا كأنا ما التقينا

وكنا نحسب أن الدهر لا يدور، وأن الأعـجاز صدور، والأهلة بدور؛ حتى ضـرب الدهر ضربانه، وبدد الرفـيق من ذلك الفريق وأبانه؛ فـلم تتأود قدود الأغـصان، ولم تترنح أعطاف البـان؛ وانقطعت الأسبـاب عن مواصلة الجيران والأحباب؛ الذين:

جرى بعضهم ذات اليمين وبعضهم شـمـالاً وقلبى بـينهم مـتـوزعُ

فو الله مـا أدرى بليل وقد مـضت حـمـولهم أى الفـريقـين أتبعُ؟

وهأنا الآن أحاول إطفـاء لهيب بالضلوع وقد، وأعـالج أدواء سقم جل وكيف لا وقد:

روعت بالبـين حـتى مـا أراعُ به وبالمصـائب فـى أهلى وجـيـرانى

لم يترك الدهر لـى علقًا أضن به إلاّ رمـاه بفـقـد أو بهـجـرانِ

وفى هذا التاريخ الغـريب، وردت كتب من تلك الناحية حـركت شجو الغريب؛ والشوق إلى لقائهم، والتوق إلى ما يرد من تلقائهم، يقتادان القلب بزمام فينقاد، ويوقدان نار الوجد بين الضلوع أى إيقاد:

هى الدار لا أصـحو بهـا علاقـة لأمـر لنا بيـن الجـوانح مـضـمـرِ

فجـاء على أرجائهـا الغيث أنـها منازل جـيـران كـرام ومـعـشـرِ

وكان من جـملة فصـولها، وفروع أصـولها؛ طلب التـعريف والإلمام، ببعض أحوال الشيخ الإمام، قاضى الأئمة وعلم الأعلام، عمدة أرباب المحابر والأقلام، ومفخـر علماء الإسلام، ذى الفضائل التى استـقلت رسومها، فلم تحتج إلى إعمال الأعلام؛ والمحاسن التى بهرت أقـمارا وشموسا، سيدى أبى الفضل عياض بن موسى؛ الشهـير الصيت فى كل قطر، صب الله على مثواه من الرحمات شآبيب القطر:

فـهـو الإمـام الذى سـارت مـآثره فى الشرق والغرب سير الشمس والقمرِ
وكم له من تآلـيف قـد اشـتـهـرت بكل قطر فـسل تُنبـيك عـن خـبـرِ

فقالت: نالى بهذا الأمـر يدان، ولو أيدنى كل قاص ودان؛ وماذا عسى أن أصف من جلالة يتهلل بشرها، وجزالة يتـضوع نشرها؛ وبلاغة تبذ بلاغة سحـبان، وبراعة تقاعس عـن رتبتها الشـيب والشبان، وعلم أظهـر غوامض الحقائق وأبان، وحلم أرسخ من رضوى وأبان؛ ومـحاسن، ماؤها غير آسن، وحلى، حازت مـراتب العلى، ومصنـفات، مقـرطات مشنفـات، أعلاق لا تعدلها الأثمان، ولا تشد على مثلها الأيمان[1].

على أنى لست من رجال هذا المجال، ولا من فرسـان ميدان الإحسان؛ إذ الباع قـصير، والعـقل بقواعـد العلم غير بصـير؛ والقلب حليف أشـجان وأوصاب، والفكر أليف غُصص تجرع منها جنى حنظل أو صاب؛ لا أستطيع إنشاء قول، ولا أفكر إلاّ فى هم أو هول؛ إلى ما دهم من الفتن، التى محت مـا بالدهر من ازديان؛ وطرق مـن المحن، التى يغنى عن خـبـرها العـيـان؛ فتنوعت مـنها الأعداد، إلى أفـراد وأزواج، وكثر الـترداد، من الخطوب ذات الجموع والأفواج؛ وتفاقم وازداد، هول بحورها المتلاطمة الأمواج:

حـملنا من الأيام مـا لا نطيـقـه كما حمل العظم الكسـير العصائبا
وعـصـر رجـونا منه إبداء منحـة فـأبدى ولكن مـحـنة ومـصـائبـا

وما حـال من قرت المصـائب عيـونه دموعـا وجوانحـه جوى، ورمـته النوائب عن قسى النوى؛ فخلع عـلى الكواكب كراه، وبرح به الشوق وبراه.

(١) الأيمان: جمع يمين، وهى اليد اليمنى.

وقطع ودج صبره وفـراه، واعتراه من الدهر ما اعتراه، وضـاعف ما به كذب حاسد افتراه؛ يأكل المحاسن، ويجهل بمساويه أن يحاسن؛ ويعيد الحق باطلا، والحالى عـاطلا؛ ويقلب المنحة مـحنة، ويرى المصافـاة إحنة؛ يخاتل مـخاتلة الذيب، ويكدر مناهل الخلوص والتهـذيب، ويقابل الحق الواضح بالتكذيب؛ ويشتغل بما لا يعنيه، ويعرض عما يقربه إلى ربه ويزلفه ويدنيه:

لى حـــيلة فـــيـــمن ينم ولـيس لـلـكذاب حـــــيلـة

من كـــان يخـلق مـــا يقـــو ل فـــحـيلـتى فـيـــه قليـلة

إلى الله المشتكى من هذا وأضرابه، ممن لم تَصْفُ موارد شرابه:

مـضت أعمـارنا ومـضت سنونا ولم تـظفـــر بـذى ثقـــة يدانِ

وجـــربنـا الزمـــان فلم يـفـــدنا سـوى التخـويف من أهل الزمـانِ

ولا غـرو أن كان لأهل الزمـان اشتبـاه، ولله قول بعض أهل الذكـاء والتيقظ والانتباه:

والنـاس مـــــثـل زمـــــانـهم حـــذو الحـــذاء على مـــثـــالهْ

ورجـــــال دهرك مـــــثـل دهـ ـرك فـى تقـلبـــــه وحـــــاله

ولذا إذا فـــســـــد الزمـــــا ن جـرى الفـســاد على رجـاله

أستغفر الله، هذه نفثة مصدور ذى ألم، أو هفوة مغمور ساعدها طغيان القلم:

نذم زمـــــانًا مـــا لـه من جنـاية ونشكوه لو تغـنى عن المرء شكواه

ولا ذنب فـيـنا للزمـــان وإنّمـــا جنينـا فـعـوقـبنا بما قـد جـنيناه

هو القدر الجارى على الكره والرضا فـصـبـرًا وتسلـيـمـا لما قـدر الله

ونفوسنا أولى باللوم، لو سلكنا سبيل خيار القوم؛ واقتفينا سنن التقوى، وتمسكنا بحبل التوفيق الأقوى:

وما دارنا إلاّ موات لَوَ انّنا نفكر والأخرى هى الحيوانُ

شرينا بها عزًّا بهُونٍ جهالةً وشتان عزٌّ للفتى وهوانُ

وحق لمن علم تقلبات الدهر بأهله وتصرفاته، أن يستعمل ما بقى من عمره فيما يوصله إلى منازل النعيم المقيم وغرفاته:

للدهر قوس لا تزال سهامها تصمى الأنام أصاغرًا وأكابرا

طوبى لمن هجر القبيح ولم يكن إلاّ على فعل الجميل مثابرا

جعلنا الله ممن ثابر على فعل الجميل، وبلغ من خير الدارين غاية التأميل.

وحين ورد على هذا الخطاب الذى تقدم، وألفى ركن الاصطبار كاد يتهدم أو تهدم؛ أضربت عن جوابه حينا من الدهر، وماطلت مقتضى دينه من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر؛ والأرض تميد اضطرابا واختلالا، والأحوال تزيد دنفا واعتلالا؛ وأنا أحوم على مناهل الجواب حوما، وأروم الورود فى مشاربها العذبة يوما فيوما؛ والأيام لا تسمح بنهله، ولا تفسح إليها فسحة، ولا توسعها مهلة؛ ثم وقع العزم والتصميم على جواب هذا السائل، راجيا من الله سبحانه أن يكون ذلك من أفضل القرب وأعظم الوسائل؛ ودخلت من هذا الباب بعد أن قرعت، وأخذت فى هذا الغرض وشرعت، وشربت من ماء التصنيف وكرعت، وبذرت فى أرض التأليف وزرعت، هذا مع أنى ما مهرت ولا برعت؛ ولا أتقنت لصناعة التأليف عملا:

لكن قـدرة مـثلى غـيـر خافـيـة والنمل يغذر فى القدر الذى حملا

وكثـيرا مـا خرجت من الشيء إلى مـا يناسبـه ويدانيه؛ وربمـا أبعدت النجعة، ثم وقعت الأوبة والرجعة على رغم أنف قالى ذلك وشانيه، وقربت بذلك كله شاسـعا، كى تسهل مـئونته على مُـعانيه، وهصـرت أفنان ألفاظه ومعانيه؛ ليقرب اقتطافه لجانيـه؛ وسميته «بأزهار الرياض، فى أخبار عياض، وما يناسبهـا مما يحصل به ارتياح وارتياض» تسميـة وافقت إن شاء الله معناه، وناسـبت منزله ومـغناه؛ لأنه جـمع أزاهر ذات ألوان، من ورد وأقـحـوان؛ وبهار؛ عرفه ذو انتشار؛ ومنثـور، روضه مريع ممطور، ونسرين، يفوق أرجه مسك دارين؛ وآس، عاطر الأنفاس؛ وشقيق، خليق بالمدح حقيق؛ ونيلوفر، حاز مـن المحاسن النصـيب الأوفر؛ وأجـريت جداول أنهـار، من الحكايات لسـقى هذه الأزهار؛ فـأينع النوار، وتألقـت الأنوار، وتفنن الناظر بين أنجـاد وأغوار، ولـم يدر وقد انتـقل من أطوار إلى أطوار، وتأمل صرحـا بنى على غير شفا جرف هار:

أضـيـاء هدى أم ضـيـاء نهـار وشـذا المحـامـد أم شـذا الأزهار

وقد أفصح ترجـمان التراجم عن عدها وسردها، ولوح لنكتـة الاختتام بنيلوفرها والافتتاح بوردها.

وهى هذه الترجمة:

الأولى: روضة الورد، فى أولية هذا العالم الفرد.

الثانية: روضة الأقحوان؛ فى ذكر حاله فى المنشأ والعنفوان.

الثالثة: روضة البهـار، فى ذكر جملة من شيوخـه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار.

الرابعة: روضة المنثور، فى بعض ماله من منظوم ومنثور.

الخامسة: روضة النسرين، فى تصانيفه العديمة النظير والقرين.

السادسة: روضة الآس، فى وفاته وما قابله الدهر الذى ليس لجرحه من آس.

السابعة: روضة الشقيق، فى جمل من فوائده، ولمع من فرائده، المنظومة نظم الدر العقيق.

الثامنة: روضة النيلوفر، فى ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التى هى أعطر من المسك الأذفر.

فدونك أيّها الناظر روضات أزهار، وجنات تجرى من تحتها الأنهار؛ أبوابها ثمانيه، وقطوفها دانيه؛ تعطر منها نسيم الصبا بزهر الآداب، وسما إلى محاسنها من تعلق من التاريخ بأهداب؛ لم أسبق إلى مثلها فيما رأيت، وإن بعدت فيها عن المهيع المطروق ونأيت؛ والإنسان مغرم ببنيات أفكاره، وإن قوبل ما صدر منه بإنكاره؛ وقد أنشدت بلسان حالها، مخاطبة من رضى بانتسابها وانتحالها:

سرح جفونك فى الحدا ... ئق واجن أزهار الرياض

من ورد أحمر أو شقا ... ئق أو بهار ذى بياض

واشرب بكاسات الرفا ... ئق من عيون أو حياض

وانظر مناقب ذى الحقا ... ئق عالم الدنيا عياض

واكرع بماء التعريف زلالا، وأدر كأس التشريف حلالا؛ وارو من هذا النهر، واقطف ما شئت من أصناف الزهر؛ وأخطر هذه الروضة ببالك، وأدر إليها وجه قبولك وإقبالك؛ فمؤلفها وإن لم يكن بمصيب، ولا ممن له فى الإجادة حظ وافر ولا نصيب، فمن أُلّفت فيه تحسن بإحسانه وتنال المرعى الخصيب:

سلام مثل عرف المسك طيبا وحسنا مثل أزهار الرياض
على لفظ الجلالة والمعالى إمام الدين والدنيا عياض
إذا ما قيس بالعلماء طرا غدا بحرا وأضحوا كالحياض

وكنت حين شرعت فى هذا المجموع السامى، وأطلعت على بعضه صاحبنا الفقيه العلامة الأصيل الحاج الرحال، أبا الحسن سيدى على بن أحمد الخزرجى الشامى، حفظ الله كماله، وبلغه آماله، خاطبنى بقصيدة من نظمه، أسماه الله، ألمّ فيها بذكر هذا الموضوع بما يقتضيه شرف خلاله، وكرم جلاله؛ وأشار فيه إلى نقض عزم الرحلة التى نويت إذ ذاك للمكان الشريف، لا حرمنا الله من مشاهدته عن قرب، فى حفظ وعافية، بمنه ويمنه. وهى هذه، وأنشدنيها من لفظه، وكتبها بخطه، وأرسلها إلىّ، شكر الله صنيعه:

أمفتى الغرب أبدعتم طرازا نثرتم فيه أزهار الرياض
ونظمتم عقودا من لآل لجيد حلى المآثر من عياض
وأورقتم غصون علاه لمّا سقاها فكركم سقى الحياض
ونمقتم مطارف ما رأينا كطرتها سوادا فى بياض
ونواديتم عقائلها فذلت شوامسها إليكم بارتياض

وأســـســـــتم من الآثـار طرا قــواعـد لا تســاوم بانتـقــاض
لك التـبـريز فى العليـاء فـاقض على علـمـائهـا مـا أنـت قـاضى
تبـــديتم بهـــا بـدرا وحـــزتم خـصـال سبـاقكم دون اعـتـراض
نعـتم بـالكمـال بغـيـــر عطف وكـلهـم بـذلك الـنـعت راضـى
ومـــا وفـــوا بحـــقكـم ولكن يؤدى البـعض من بعض افـتـراض
بعلمكـم شـفـيـتم أرض غـرب وكـــانت ذات أحـــشـاء مـــراض
ولّـا أن بدا مـنكـم فـــــــراق توقـــعت أن يئـول إلى انـقـراض
وأنّ نجـومـهـا بالبـعـد يخـشى عليـهـا من سـقـوط وانقـضـاض
فـأرسل شـافـعـــا خل حـشـاه بهـذا البعـد أمـست فى انفضـاض
يذكـــركم لـيـــالى نيـــرات بأنسكـم تنيـر دجى المـضـاض[1]
يود الطرف يجـعلهـا اكـتـحـالا مكان ســواده دون اغـــتـمـــاض
بحـق الله لا تبـــدى دجـــاها بغـيـبـــة بدركـم بعـــد اتماض
ولا تمهل شـفـاعـة مـسـتـهـام صـــدوق الود فـى آت ومـــاضى
ودم للديـن والدنيـــا إمـــامـــا وبحـر هدى علومك فى افـتيـاض
يعـم الأرض مـــا لاحـت بدور ومـــا فـــاحت أزاهر فـى رياض

يكرع منه الملوك علا ونهـلا، ويضرع فى الجواب فعلا لا قـولا؛ ويعيد السلام التام، الزكى العام، على المجلس العلمى، ورحمة الله تعالى وبركاته.

(١) المضاض: وجع يصيب الإنسان فى العين وغيرها مما يُمِضُّ.

انتهى ما كتب به صانه الله، وأضفى عليه حُلل المجد.

وقد ذكرت فى هذا الكتاب حكايات مختلفة، وفنون مفيدة، يزداد الناظر بها معرفة حسبما جرت بذلك عادة كثير من الأئمة فى مصنفاتهم، ومجالس درسهم. وقد قال الماوردى، أقضى القضاة فى كتاب آداب الدين والدنيا: القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة؛ وذكر أن المأمون كان ينتقل فى قصره من موضع إلى موضع، وينشد قول أبى العتاهية:

لا يصلح النفس إذْ كانت مدبرة إلاّ التنقل من حال إلى حال

وقال أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء أحب إلىَّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم. وقال الشيخ سيدنا أبو القاسم الجنيد، رضى الله عنه، ونفعنا ببركاته: الحكايات جند من جنود الله، يقوى الله بها أبدان المريدين. وقال الإمام المواق فى كتابه المسمى «سند المهتدين» عن شيخه المنتورى، بسنده إلى أبى العباس بن العريف، قال: كنت فى مجلس أستاذى أبى على الصدفى أقرأ عليه الحديث، فقرأ يوما الحديث ثم أغلق الكتاب وجعل يحكى حكايات الصالحين، فوقع فى نفسى: كيف يجيز الشيخ أن يقطع حديث رسول الله ﷺ، ويحكى الحكايات؟ قال: فما تم لى الخاطر حتى نظر إلىَّ الشيخ شزرًا، وقال: يا أحمد، الحكايات جند من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين من عباده. قال: فما بقى فى جسدى شعرة إلاّ قطر منها العرق. فلما رآنى دهشت قال لى: يا أحمد أين مصداق ذلك من كتاب الله؟ قلت: الشيخ أعلم؛ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ ... ﴿١٢٠﴾﴾ [هود] الآية. انتهى.

وهذا أوان الشروع وعلى الله قصد السبيل وهو حسبى ونعم الوكيل.